

عاشوراء .. ذكرى نجاة المصلحين من جبروت الظالمين



الثلاثاء 11 أكتوبر 2016 12:10 م

لما تمادى الطاغية فرعون في مخالفته لنبي الله ورسوله وكليمه موسى بن عمران ، أقام الله على أهل مصر الحجج العظيمة القاهرة، وأراهم من خوارق العادات ما بهر الأبصار وحير العقول، وهم مع ذلك لا يرجعون ولا ينتهون ولا ينزعون ولا يرجعون□

لقد تمادى فرعون في سطوته وجبروته وكفره وطغيانه يفتن قومه عن الدين الحق، قال الله تعالى مخبراً عن فرعون وكفى بالله شهيداً {فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُشْرِكِينَ} {يونس: 83} أي جبار عنيد مستعل بغير الحق، {وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُشْرِكِينَ} أي في جميع أموره وشئونه وأحواله□

ولم بلغ به الأمر مبلغه حتى اعتبر نفسه إلهًا محبوبًا، وهنا لما يبلغ الكفر مبلغه والطغيان منتهاه ويطن الرسل يأتيهم نصر الله، ولقد كانت أول معالم ذلك النصر اجتماع موسى بأتباعه يوصيهم ويثبتهم ويرشدهم، ويربطهم بفاطر الأرض والسماء {وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ كُفَّارِيں} {يونس: 84}. ويأتي الجواب مطمئناً لموسى ممن تربوا في هذه المدرسة النبوية فقالوا {فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} {يونس: 85} أمرهم بالتوكل على الله والاستعانة به والالتجاء إليه، فأتروا بذلك، فجعل الله لهم مما كانوا فيه فرجًا ومخرجًا□

ويأتي الثاني من معالم النصر بشرى الله لهم {وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكَ إِيعَابًا لِّبُيُوتِهِمْ وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} {يونس: 87}.

فقد أوحى الله تعالى إلى نبيه موسى وأخيه هارون -عليهما السلام- أن يتخذوا لقومهما بيوتًا متميزة فيما بينهم عن بيوت القبط ليكونوا على أهبة في الرحيل إذا أمروا به ليعرف بعضهم بيوت بعض، وفي هذا العمل تأكيد على مبدأ فعل الأسباب، وأنه ينبغي أن يقرن بالتوكل على الله تعالى□

ثم إن الله قد أمرهم {وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} {يونس: 87} قيل: مساجد، وقيل: معناه كثرة الصلاة فيها، قاله مجاهد وغيره□ ومعناه على هذا الاستعانة على ما هم فيه من الضر والشدة والضيق بكثرة الصلاة كما قال تعالى: {وَأَشِيعُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ} {البقرة: 45}. وكان رسول الله إذا حزبه أمر فزع للصلاة، فالصلاة لها من الآثار الدنيوية والأخروية الشيء الكثير□

وتتالي الأيام وموسى ومن معه يكسوهم الصبر ويحليهم الإيمان بالله والتوكل عليه ويزينهم الصلة بالله والاستعانة بالصلاة، وهناك في الطرف الآخر فرعون ومن معه في غيهم يعمهون، وعن الحق معرضين يعاندون ويتمردون□

وتقرب لحظات النصر، {وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الأَلِيمَ} {يونس: 88} إنه دعاء من قلب صادق متوكل على الله، دعاء لنصرة الحق ودحر الباطل، إنها دعوة عظيمة دعا بها كليم الله موسى على عدو الله فرعون؛ غضبًا لله عليه لتكبره عن اتباع الحق وصدده عن سبيل الله ومعاندته وعتوه وتمرده واستمراره على الباطل ومكابرته الحق الواضح الجلي الحسي والمعنوي والبرهان القطعي، وتأتي الإجابة من القريب المجيب {قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا} {يونس: 89}. والتثنية هنا كما قرر أهل العلم؛ لأن هارون كان يؤمن على دعاء أخيه، فأصبح المؤمن بمنزلة الداعي□

{فَأَشِيعُوا وَلا تَتَّبِعَنَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ} {يونس: 89} ويأتي الإذن من الله لموسى ليسيروا ومن اتبعه إلى الشام خارجين من مصر، فلما علم بذهابهم فرعون حنق عليهم كل الحنق واشتد غضبه عليهم، وشرع في استحثاث جيشه وجمع جنوه ليلحقوا بموسى ومن معه، وأجمل بالقرآن الكريم وهو يصور لنا هذه الأحداث في منظر بديع وتصوير أخاذ، قال الله ومن أصدق من الله قيلاً: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى

أَنْ أُسْرَ بِعِبَادِي إِيَّكُمْ مُتَّبِعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ خَاشِعِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءَ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ خَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْوُنٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَأَتَّبَعُوهُمْ مُتْسِرِّقِينَ { [الشعراء: 52-60].

قال علماء التفسير: لما ركب فرعون في جنوده طائفاً بني إسرائيل كان في جيش كثيف عرمرم حتى قيل كان في خيوله مائة ألف فحل أدهم، وكانت عدة جنوده تزيد على ألف ألف وستمائة ألف، فإله أعلم

والمقصود أن فرعون لحقهم بالجنود فأدركهم عند شروق الشمس وتراءى الجمعان ولم يبق ثم ريب ولا لبس، وعابن كل من الفريقين صاحبه وتحققه ورآه ولم يبق إلا المقاتلة والمجادلة والمعاماة، فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون: { إِنَّا لَقَدْ كَرِهْنَا } [الشعراء: 61]؛ وذلك لأنهم اضطروا في طريقهم إلى البحر فليس لهم طريق ولا محيد إلا سلوكه وخوضه، وهذا ما لا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه والجبال عن يسرتهم وعن أيمانهم وهي شاهقة منيفة، وفرعون قد واجههم وعابنوه في جنوده وجيوشه وعدده، وهم منه في غاية الخوف والذعر لما قاسوا في سلطانه من الإهانة والمنكر، فشكوا إلى نبي الله ما هم فيه مما قد شاهدوه وعابنوه، فقال لهم الرسول الصادق المصدوق: { قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الشعراء: 62]. (كلا.. يا لها من كلمة قوية مدوية! ثبات وثقة بوعد الله وموعوده، حتى في أحلك الظروف، ولك أن تتخيل الموقف أكثر، موسى ومن معه محاصرون البحر أمامهم والعدو الحاقد خلفهم، والوقت يمضي والعدو يقرب من مناله

فلما تفاقم الأمر وضاق الحال واشتد الأمر واقترب فرعون ووجنوده في جددهم وحدهم وغضبهم هناك، تنزل الوحي على موسى { فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَاِنْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ } [الشعراء: 63]. نعم، لقد تحول البحر إلى يابس حوله من يقول للشئء كن فيكون

فلما آل أمر البحر إلى هذه الحال بإذن الرب العظيم الشديد المحال أمر موسى أن يجوزه ببني إسرائيل، فاندحروا فيه مسرعين مستبشرين مبادرين وقد شاهدوا من الأمر العظيم ما يحير الناظرين ويهدي قلوب المؤمنين، فلما جاوزوه وجاوزه وخرج آخرهم منه وانفصلوا عنه كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون إليه ووفودهم عليه، فأراد موسى أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه؛ لئلا يكون لفرعون ووجنوده وصول إليه ولا سبيل عليه، فأمره القدير ذو الجلال أن يترك البحر على هذه الحال { وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ زَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ } [الدخان: 24]. أي ساكناً على هيئته لا تغيره عن هذه الصفة، فلما تركه على هيئته وحالته وانتهى فرعون فرأى ما رأى وعابن ما عابن، هاله هذا المنظر العظيم، وتحقق ما كان يتحققه قبل ذلك من أن هذا من فعل رب العرش الكريم، فأحجم ولم يتقدم وندم في نفسه على خروجه في طلبهم والحالة هذه حيث لا ينفعه الندم، لكنه أظهر لجنوده تجلداً وعاملهم معاملة العدا، وحملته النفس الكافرة والسجية الفاجرة على أن قال لمن استخفهم فأطاعوه وعلى باطله تابعوه: انظروا كيف انحسر البحر لي لأدرك عبيدي الآبقين من يدي، الخارجين عن طاعتي وجعل يوري في نفسه أن يذهب خلفهم، ويرجو أن ينجو وهيئات! ويقدم تارة ويحجم، فلما رآته الجنود قد سلك البحر اقتحموا وراءه مسرعين، فحصلوا في البحر أجمعين حتى هم أولهم بالخروج منه، عند ذلك أمر الله تعالى كليهما فيما أوحاه إليه أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فارتد عليهم البحر كما كان فلم ينج منهم إنسان، قال الله تعالى: { وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ } [الشعراء: 65-67].

إن في إنجاء الله لأوليائه فلم يغرق منهم أحد، وإغراقه لأعدائه فلم يخلص منهم أحد - آية عظيمة وبرهان قاطع على قدرته تعالى العظيمة، وصدق رسوله فيما جاء به عن ربه من الشريعة الكريمة والمناهج المستقيمة

ولما رأى فرعون الحقيقة وأدركه الغرق { وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَّبَعُهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَقَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ } [يونس: 90] وهيئات! { آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ } [يونس: 91]. ويأتي الحكم من الله { فَأَلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ } [يونس: 92].

وانتهت أحداث ذلك اليوم العظيم، كما سماه رسولنا؛ فعن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن رسول الله قدم المدينة فوجد اليهود صيماً يوم عاشوراء، فقال لهم رسول الله: " ما هذا اليوم الذي تصومونه؟" فقالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه، وغرق فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً؛ فنحن نصومه فقال رسول الله: " فنحن أحق وأولى بموسى منكم"، فصامه رسول الله وأمر بصيامه [2].

المصدر: موقع صيد الفوائد

يقول الشيخ محمد الغزالي يحكى جزء من القصة ويستخلص لنا العبرة :

عندما كان موسى عليه السلام يكافح لتحرير قومه من ظلم الفراعنة واجه متاعب جدية بالتأمل، وجل هذه المتاعب كان من قومه أنفسهم!.

أصدر اليهم الأمر أن يرحلوا من مصر فى ليلة موعودة، وأن يستخفوا تحت جنح الظلام متجهين شطر البحر الأحمر، واستجاب اليهود للأمر إن بعض الشباب الحديث السن السليم الفطرة هو الذى اعتنق رسالة موسى، وقرر أن يقاوم معه الجيروت، ومضى مع أحلام المغامرة ينشد مستقبلاً أشرفاً!

أما الشيوخ وسواد اليهود فقد قيد مسالكهم الخوف ولم يتحمسوا لدعوة الحرية! وقد انكشفت خباياهم لما قرر فرعون ملاحقة الهاربين من بطشه، وخرج على رأس جيش كبير ليستعيد قوم موسى إلى السجن الذى فروا منه!!.

كانت مطاردة مثيرة، اليهود يشتدون نحو الساحل عابرين الصحراء الشرقية، وفرعون وراءهم يريد أن يدركهم ويصف الإصحاح الرابع من سفر الخروج هذا الموقف قائلاً: " فلما اقترب فرعون رفع بنو إسرائيل عيونهم، وإذا المصريون راحلون وراءهم .

ففزعوا جدا، وصرخ بنو اسرائيل إلى الرب وقالوا لموسى: هل لأنه ليست لنا قبور فى مصر أخذتنا لنموت فى البرية؟ ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر؟ أليس هو الكلام الذى كلمناك به فى مصر قائلين: كف عنا فنخدم المصريين لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت فى البرية "؟.

إن هذا الكلام ناضح بالنذالة والجبن واستمراء الدنية، والواقع أن الشعوب التى برحت بها العلل لا يمكن أن تبرأ من سقامها بين عشية وضحاها، إنها تحتاج إلى مراحل متتابعة وسنين متطاولة من العلاج المتأنى الصبور حتى تنقذ من بلائها

من أجل ذلك قرر المصلحون بعد تجارب مريرة أن الزمن جزء من العلاج

وقد رأيت بعد تدبر عميق أن الشعب الإسرائيلى أول أمره لم يتبع موسى عن عزة نفس أو صلابة يقين، لعله تبعه عن تجاوب عرقى أو تعصب قبلى، ثم استفاد الأخلاق والإيمان فى مراحل متأخرة

من كتاب (الطريق من هنا)